ـ ٥ ـ

خطب زياد بن أبيه[☆] حين ولي العراق :

أما بعدُ فإنَّ الجهالة الجهلاء والضَّلالة العمياء ، والغَيَّ الموفي بأهله على النَّار ما فيه سفهاؤكم ، ويشتمل عليه حلماؤكم : من الأمور التي ينبُت فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ، كأنكم لم تقرؤوا كتاب الله ، ولم تسمعوا ما أعدَّ الله من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والعذاب الأليم لأهل معصيته ، في الزمن السرمديّ الذي لا يزول . إنَّه ليس منكم إلاّ من طَرَفت عينَه الدنيا وسدَّت مسامعَه الشهوات ، واختار الفانية على الباقية ، ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تُسبقوا إليه : مِنْ تَرْككم الضعيفَ يُقْهَر ، والضعيفةَ المسلوبة في النّهار لا تُنْصَر ، والعددُ غيرُ قليل ، والجمعُ غيرُ مفترق . ألم يكن منكم نُهاة يمنعون الغُواة عن دَلج الليل وغارة النهار ! قرَّبتم القرابة ! وباعدتم الدين ، تعتذرون بغير العذر ، وتُغْضُون على النُّكر . كلُّ امرئٍ منكم يردُّ عن سفيهه ، صُنْعَ مَنْ لا يخاف عقاباً ، ولا يرجو مَعاداً . فلم يزل بهم ما تَرَون من قيامكم دُونهم حتَّى انتهكوا حُرَم الإسلام ثمَّ أطرقوا وراءكم كُنوساً[1] في مكانس الرِّيب . حرام عليَّ الطعام والشراب حتَّى أضعَ هذه المواخير بالأرض هدماً وإحراقاً ! إنِّي رأيت آخر هذا الأمر لا يصلُح إلا بما صلُح به أوّله : لينٌ في غير ضعف ، وشدّة في غير عنف ، وإني لأقسم بالله لآخُذَنَّ الوليّ بالمولى والمقيمَ بالظاعن ، والمطيع بالعاصي ، حتى يلقى الرجلُ أخاه

(☆) هو زياد بن سُميَّة ولد في السنة الأولى للهجرة ، ونشأ علاماً فصيحاً شجاعاً . صار كاتباً لأبي موسى الأشعري والي البصرة في عهد عمر بن الخطّاب ، فأظهر براعة وذكاء حتى ذهب أبو سفيان بن حرب إلى إلحاقه بنسبه مدّعياً أنه لم يستلحقه بنسبه أنفة من العار وختية من عمر . تولّى لعليّ بن أبي طالب أعمالاً منها إخماد الاضطرابات في فارس وغيرها . وصار بعد ذلك والياً على البصرة وخراسان والكوفة لدى معاوية الذى اعترف به أخاً له . ووطّد لمعاوية المُلك وشمل خوفه جميع الناس ، وتوفي سنة ٥٣ هـ .

(١) جمع كانس أي مستتر ـ ومكانس الرّيب مكامنها المستترة .